

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومي مذكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٣ —

لم يقف ابن سينا عندما تقدم في إثبات وجود النفس ومغايرتها للبدن، بل افترض فرضاً آخر هو من أبدع حججه وأكثرها ذيوياً، ونعني به فرض الرجل المعلق في الفضاء . فلو تصورنا أن شخصاً ولد مكتمل القوى العقلية والجسمية ، ثم غطي وجهه بحيث لا يرى شيئاً مما حوله ، وعلق في الهواء أو بالأولى في الخلاء كي لا يحس بأي احتكاك أو اصطدام أو مقاومة ، ووضعت أعضاؤه وضعا يحول دون تماسها أو تلاقبها ، فانه لا يشك بالرغم من كل هذا في أنه موجود وأنه كان يعز عليه إثبات وجود أي جزء من أجزاء جسمه . بل قد لا تكون لديه فكرة ما عن الجسم والوجود الذي تصوره مجرداً عن المكان والطول والعرض والعمق ، وإذا فرض أنه تخيل في هذه اللحظة بدأ أو رجلاً فلا يظن يده ولا رجله ، وعلى هذا إثباته أنه موجود لم ينتج قط عن الخواص ولا عن طريق الجسم بأسره : ولا بد له من مصدر آخر مغاير للجسم تمام المغايرة وهو النفس^(١) . يقول ابن سينا : « يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملاً ، ولكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات ، وخلق يهوى في هواء أو خلاء هويماً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدمة ما يحوج إلى أن يحس ، وافرقة بين أعضائه فلم تلاق ولم تماس ، ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته فلا يشك في إثباته لذاته موجوداً ، ولا يثبت مع ذلك طرفاً من أعضائه ولا باطناً من أحشائه ولا قلباً ولا دماغاً ولا شيئاً من الأشياء من خارج ، بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً . ولو أنه أمكنه في تلك الحال أن يتخيل بدأ أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطاً في

ذاته ؛ وأنت تعلم أن المثبت غير الذي لم يثبت ، والمقر به غير الذي لم يقرب به ، فإذن للذات التي أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التي لم يثبت^(٢) ، ، وواضح أن هذه البرهنة قائمة على أن الإدراكات المتميزة تستلزم حقائق متميزة تصدر عنها ، وأن الانسان قد يستطيع أن يتجرد من كل شيء اللهم إلا نفسه التي هي عماد شخصيته وأساس ذاته وماهيته .

وإذا كانت الحقائق الكونية كلها تصل إلينا بالواسطة فهناك حقيقة واحدة ندركها إدراكاً مباشراً ولا نستطيع أن نشك فيها لحظة ، لأن عملها يشهد دائماً بوجودها . وما أصدق سقراط حين قال : اعرف نفسك بنفسك . ولئن كنا نستدل على وجود جسم ما بالحيز الذي يشغله فالتفكير الذي هو خاصة النفس الملازمة لها دليل قاطع على وجودها

وقد سبق إلى هذا المعنى أعظمين فيلسوف المسيحية في القرن الخامس الميلادي وسلك في البرهنة على وجود النفس سبيلاً تشبه من بعض الوجوه السبيل الآنف الذكر ، فذهب إلى أن الجسم والنفس حقيقتان متميزتان تمام التميز ، ففي حين أن الأول يشغل حيزاً وله طول وعرض وعمق لا حيز للثانية مطلقاً ، وخاصيتها الوحيدة هي التفكير ؛ ومن أجل هذا كان شعورنا بها وإدراكنا لها إدراكاً مباشراً ، فإن الفكر لا يحتاج إلى واسطة في فهم ذاته ، وما دامت النفس تفكر فهي موجودة ، لأن تفكيرها يساوي وجودها تمام المساواة . وقد يستطيع الانسان أن يتجرد عن جسمه وعن العالم الخارجي في كل مظاهره ، وأن ينكر الحقائق على اختلافها وأن يشك في كل شيء إلا نفسه التي هي مصدر شكه ومبعث تفكيره فإنه لا يجد إلى الشك فيما سيلا^(٣)

وهنا نتساءل : هل تأثر ابن سينا بأغسطين أم الأمر مجرد توافق خوارط ؟ لم يثبت مطلقاً أن مؤلفات الأخير نقلت إلى العربية ، ولا نجد أية وسيلة سمحت لابن سينا بالأخذ عنه ، ويرجح الأستاذ جلوس أنهما معا صدرا عن أصل اسكندري ولا سيما وهما شديدا

(١) ابن سينا ، (المصدر السابق) ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

(2) St Augustin, (De trinitate), X, cap. X, art. 13-16.- Gilson, (Introduction à l'étude de St Augustin), 56-59.

(١) ابن سينا ، (الاشارات) ، ١١٩ - ١٢٠ (النقاء) ، ج ١ ، ص ٢٦٢

ومخيلتنا أثناء النوم تغدق علينا صوراً وأوهاماً لا أساس لها . وأخذ يشك في كل شيء إلى أن انتهى به شكه إلى حقيقة ثابتة هي أنه يفكر ؛ ومادام يفكر فهو موجود ، وفي مقدور الشكاك واللاأدرين أن يهدموا الحقائق على اختلافها إلا هذه الحقيقة التي تحمل معها برهانها ^(١) .

يقول ديكارت : « قد أستطيع أن أفترض أن لاجسم لي وأن لا عالم ولا مكان أحل فيه ، ولكنني لا أستطيع لهذا أن أفترض أني غير موجود ، بل على العكس ينتج قطعاً وفي وضوح من شكى في حقيقة الأشياء أني موجود ... فقد عرفت إذن أني جوهر ذاته وطبيعته التفكير ، ولا يحتاج في وجوده إلى مكان ولا يخضع لشيء مادي ، وعلى هذه الصورة الأنا أو النفس التي هي أساس ما أنا عليه متميزة تمام التميز من الجسم ، بل هي أبسر معرفة منه ، حتى في حال انعدامه لا تنقطع هي عن أن توجد مع كل خصائصها » ^(٢) .

هذا هو الكوجيتو ^(٣) الديكارتى القائل : « أنا أفكر فأنا إذن موجود » . وهذه هي البرهنة عليه . ولا يجد القارى صعوبة في إدراك وجوه الشبه بين هذه البرهنة والبرهنتين السابقتين الأغسطينية والسينوية ، وقديماً لاحظ أن تولد ديكارت يحاكي أغسطين تمام المحاكاة في إثباته وجود النفس وتميزها من البدن ^(٤) . ولم يبق مجال للشك في أن أبا الفلسفة الحديثة قرأ مؤلفات أغسطين وخاصة ما اتصل منها بالنفس وخلودها ^(٥) وحديثاً استطاع المسويليون بلنثيه أن يبين في سعة وتفصيل جديرين بالاطراء الأفكار التي سبقت الكوجيتو الديكارتى ومهدت له ^(٦) ، غير أنه فاته أن يشير إلى الصلة بينه وبين برهان الرجل المعلق في الفضاء . وقد حاول أخيراً المستشرق الإيطالي فورلاني أن يتلافى هذا النقص ، فكتب في مجلة Islamica فصلاً عنوانه

المتعلق بأفلوطين وتعاليمه ^(١) ، بيد أننا لم نقف على شيء مما وصل إلينا يشهد بأن رجال مدرسة الاسكندرية حاولوا البرهنة على وجود النفس على النحو السابق . ولنا ندرى ما المانع أن يكون برهان الرجل المعلق في الفضاء من ابتكار ابن سينا واختراعه ، خصوصاً وهو قد عودنا صوراً فرضية أخرى كثيرة كحديث حتى بن يقظان ورسالة الطير التي تدل على خيال خصب ومهارة في التصوير . وعلى فرض أنه عالة على من قبله في بعض عناصر برهانه ، فليس هناك شك في أن الصورة الجذابة التي صورها بها من بنات فكره وإنتاجه الشخصي ، ويخيل إلينا أنه كان معتبطاً بفنه معجبا بتصويره ، ولا أدل على هذا من أنه أبرزه مرتين في كتاب الشفاء وعاد إليه مرة ثالثة في إشارات ^(٢) .

وهذا التصوير هو الذي ميز برهنته من برهنة أغسطين وإن كانتا تلتقيان في الغاية والمرمى ، وهو الذي استلقت أنظار فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين واستولى على نفوسهم ، فأعاده الكثيرون منهم بنصه أحياناً ، وخاصة أتباع أغسطين مثل غليوم الأقرني وحنا الروشيني ، وكان هؤلاء قد ازدادوا تعلقاً بالفيلسوف العربي حين رأوه يقترب من أستاذهم اللاتيني ^(٣) .

ولا نظننا في حاجة إلى أن نشير إلى أن كتاب الشفاء ترجم إلى اللاتينية . وكان للجزء المتعلق بالنفس منه أكبر الأثر في رجال الفلسفة المسيحية ، ولم يكذد دومينقوس جندسا لينوس يترجمه في القرن الثاني عشر الميلادي حتى أقبلوا عليه يتدارسونه ويأخذون عنه مختلف الآراء ، ولا يرون على أنفسهم غضاظة في أن يعزوا البرهان الذي تحدث عنه إلى صاحبه ومبتكره ابن سينا

ويظهر أنهم استمروا يرددونه فيما بينهم إلى عصر النهضة وإلى أن جاء ديكارت فنأدى بمبدئه المشهور Le Cogito الذي ينطوى على أفكار أغسطين وسينويه ، ففي بحثه عن الحقيقة عاهد نفسه على أن يرفض كل ما يتطرق له الشك ، لأن حواسنا في حال اليقظة نخدعنا وتنقل إلينا العالم الخارجى نقلاً مشوهاً ،

(1) Descartes, (Discours), 31-33 (éd. Tannery)

(2) (Thid. ;) ef. (Meditatio 11) .

(٣) فقلنا تعريب هذه الكلمة اللاتينية الأصل لما لها من منزلة تاريخية .

(4) Hamelin, (Le système de Descartes), P. 122.

(5) Bréhier, (Histoire de la plùlos.), 11, 73.

(6) L. Biancher, (Les antécédents historique du je perse donc je suis), Paris, 1920.

(1) Gilson, (Archives), r. IV, P. 41 en bas.

(٢) ابن سينا ، (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٣٦٢ (الإشارات) ،

١١٩ - ١٢٠ .

(3) Gilson (Archives), r, 53, IV, 41-42 en bas.

له (١). وإذا كان ديكارت مديناً لأغسطين بشيء في صوغه وتصويره فهو مدين بدرجته لا تقل عن هذا لابن سينا كذلك، خصوصاً وإلى الأخير يرجع الفضل في بعث أفكار أغسطين من مرقدتها وتوجيه اللاتينيين من جديد نحوها توجيهاً نشيطاً في الأربعة قرون السابقة لديكارت. وهو مع زميله ابن رشد قد أثارا في العالم الغربي منذ القرن الثاني عشر مشكلة العقل والنفس ونظرية المعرفة بوجه عام أثارة امتد صداها إلى عصر النهضة.

وغنى عن البيان أنه لا يعيب الكوجيتو مطلقاً أن يكون بعض الباحثين قد اهتدى إليه من قبل عن طريق آخر، فإن اتفاق الآراء على أمر من الأمور يزيد قوة فوق قوته ويقيناً إلى يقينه. وليس ثمت داع لأن نجهد أنفسنا، كما صنع هملاان وغيره في أن نثبت بأي ثمن أن ديكارت مبدعه الأول، فإن هذه محاولة فاشلة ولا تتفق مع روح البحث العلمي الحديث (٢). ولا يعيب ديكارت نفسه أن يكون قد سبق إليه في صورة غير الصورة التي أظهره فيها، وثوب غير الثوب الذي ألبسه إياه، فإن الفكرة الواحدة تتشكل بأشكال مختلفة تبعاً للذاهب الفلسفية التي تبدو فيها

يتبع إبراهيم مذكور

(١) يوافنا الأستاذ جيلن كذلك على هذا الرأي

(Archives, I, 63 en bas).

(2) Hamelin, (Le système de Descartes, 122, 23

التلميذ

الرواية الخالدة التي وضعها كاتب فرنسا العظيم

بول بربريه

ونقلها إلى العربية

الأستاذ عبد المجيد نافع

في أسلوب عربي مبين

نوع في جميع المكاتب الصغيرة والتي عشرة قروش صاعاً

وابن سينا والكوجيتو الديكارتى (١). وفيه يعرض برهان الفيلسوف العربي وترجمته اللاتينية القديمة، ثم يقارنه بما جاء به ديكارت موجهاً عنايته الكبيرة إلى بيان أثر الخواص والمخيلة لديهما، وينتهي بعد كل هذا إلى النتيجة الآتية: وهي أنه يستبعد أن يكون ديكارت قرأ ابن سينا رأساً لقلة المطبوعات وعدم تداول مؤلفاته في الأيدي، ويرجح أن يكون قرأه عن طريق غليوم الأقرنى (٢)

ولكننا نلاحظ أن ترجمة كتاب الشفاء اللاتينية، أعيد طبعها في فينيس ثلاث مرات بين سنة ١٤٩٦ وسنة ١٥٤٦، فتكون آخر طبعة منها ظهرت قبل ميلاد ديكارت بخمسين سنة فقط. ونحن نعلم كيف أثرت مشكلة النفس وخلودها لعنده، فمن المحتمل أن يكون الباحثون قد لجأوا إلى كل المصادر الممكنة لحلها، وابن سينا من أطول الناس حديثاً فيها وأكثرهم غراماً بها. وقد أبان رينان من قبل مقدار تعلق السربونيين ورجال الدين في باريس بالفلسفة الإسلامية بوجه عام ومناقشتهم لها وردم عليها وبحثهم عن أصولها ومصادرها، فلا يمكن أن تكون قد فاتتهم مطبوعات فينيس المتقدمة (٣) وفي مكتبة باريس الأهلية أكثر من نسخة من هذه المطبوعات، ويغلب على الظن أنها وصلت السربون منذ ذلك التاريخ (٤). وإذا كان أرنولد قد أشار إلى أغسطين فقط ليبين أن ديكارت عالة على من قبله، فلعل ذلك راجع إلى أنه تخير شخصية معروفة من العالم المسيحي المحيط به

على أن ديكارت لم يفتبه إلى ابن سينا بواسطة غليوم الأقرنى فقط، بل يغلب على ظننا أنه اهتدى إليه أيضاً في ثنايا مؤلفات روجير يكون التي قرأها وتأثر بها في نواح مختلفة، ومهما يكن فسواء أقرأ ديكارت ابن سينا مباشرة أم عن طريق غير مباشر فكل الدلائل قائمة على أن برهان الرجل المعلق في الفضاء جدير بأن يعد بين الأفكار التي سبقت الكوجيتو الديكارتى ومهدت

(1) G. Furlani, (Avicenna e il Cogito).

(2) (Thid.), P. 70.

(3) Renan, (Averroës), 267-78.

(4) Catalogue de la Bibliothèque nationale, Réserve, R. 82 (1), 82 (2), 83, 618.